قضية موت العقيد بوبراتر عام 1864 بالبيض: ملابساتها وتداعياتها من خلال وثائق أرشيفية.

د. كمال بن صحراوي *

مقدمة: سنعالج في هذا المقال قضية مقتل العقيد بوبراتر (Beauprêtre) قائد دائرة تيارت، على يد أولاد سيدي الشيخ بقيادة سي سليمان بن حمزة بعوينة بوبكر (أو عين بوبكر) على بعد 20 كلم شرق البيض يوم 1864/04/08، وملابسات هذا الحادث الذي مس الإدارة العسكرية الاستعمارية في العمق، وهو ما يتضح من خلال تداعياته الخطيرة والزخم الإعلامي الذي صاحبه، خصوصا وأن ذلك حدث بسبب تغيير قبائل لحرار وقبائل لعمور لموقفها بتحولها المتأجج والخطير إلى صف سي سليمان وانقلابها على الفرنسيين. وسنعتمد في هذه الدراسة على مجموعة من الوثائق الأرشيفية[1] التي حصلنا عليها من أرشيفات وزارة الحربية بقصر فانسان وعلى بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة للحادث أو التي جاءت بعده بفترة قصيرة.

لمحة عن العقيد بوبراتر: وصل بوبراتر إلى الجزائر وهو في مقتبل العمر، وبعد أن زاول حرفة صقل الحجارة بالدويرة التحق بالزواف ولم يكن يومها يحسن القراءة ولا الكتابة. وبعد التحاقه بهذه الفرقة صار يتعلم بالمدرسة، وقد أنبأ عن نباهة وشجاعة ثم ترقى حتى صار ملازما. وبعد وقت قصير من ذلك التحق "بالشؤون العربية" واستغل هذه الفرصة ليتحدث العربية التي تعلمها صغيرا في الدويرة.

ساهم بوبراتر في القضاء على المقاومة بمنطقة القبائل واتصف بشدته وقسوته حتى أن الأهالي لم يكونوا ينطقون اسمه إلا وظهرت عليهم علامات الخوف الشديد[2]. ثم كُلف بإخماد تمرد أولاد نايل جهة بوسعادة وكاد يُقتل لولا حصانه الذي فر به. وفي 1852 صار نقيبا ثم رائدا في 1855، وقد ساهم خلال 1856 في توجيه الحملات ضد بلاد القبائل وفي إخضاعها التام عام 1857. غير أن خلافه مع الجنرال يوسف أدى إلى إبعاده نحو الحدود الجزائرية المغربية حيث قام بدور كبير في قهر القبائل الثائرة هناك، وهو ما أهله لنيل رتبة مقدم[3].

*أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم العلوم الإنسانية- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة ابن خلدون- تيارت.

وبعد فترة أرسل بوبراتر إلى تيارت باسم قائد أعلى ثم حصل على رتبة عقيد، وفي 1864 جاءه الأمر بالتوجه إلى البيّض حيث كان سي سليمان بن حمزة قد رفع لواء المقاومة، وحيث ستجري أحداث معركة عوينة بوبكر التي يُقتل فيها بوبراتر وكثير ممن معه، والتي سنعالج أحداثها بالدراسة.

معركة عوينة بوبكر: كان أولاد سيدي الشيخ متعاونين مع الفرنسيين الذين عينوا سي حمزة خليفة على المناطق الممتدة من البيض إلى ورقلة، وعينوا أخاه سي الزبير قائدا على آغوية ورقلة. وحين توفي سي حمزة عُين مكانه ولدُه بوبكر ولكن بلقب الباش آغا الذي هو أقل رتبة من الخليفة. وحين توفي سي بوبكر في مطلع 1862 عين الفرنسيون مكانه أخاه سي سليمان بن حمزة الذي تخلى عن وظيفته بصورة غير رسمية ابتداء من فيفري 1864 – لأسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة – وتوجه إلى الجنوب مع عائلته، ونزل بقرية الحاج الدين قرب بريزينة ومن هناك أعلن الثورة على الفرنسيين[4].

لقد سبقت إرهاصاتُ الثورة- إذًا- مقتل بوبراتر، فقد بدأ تمرد القبائل المجاورة للبيض وصار نطاقها يتسع تدريجيا، وهو ما يتضح من خلال البرقية المؤرخة في 22 مارس 1864 والتي بعث بها الجنرال قايد معسكر إلى الجنرال قائد عمالة وهران: "لقد تم إبلاغ النقيب[5] Burin من قبل قايد أولاد يعقوب يوم 20 مارس بأن قبيلته كلها تمردت باستثناء دوارين اثنين. وقد جاءني تأكيد هذا الخبر من تيارت.

لقد أعطى النقيب الأمر لقياد أولاد مومن، القواريح، أولاد سيدي طيفور، الوزيقات، ماكنة وأهل ستيتن بالزحف مع جنودهم على تاجرومة لإيقاف المتمردين ومنعهم من حصاد غلالهم. إنه يخشى تمرد بقية الوزيقات واقتراب سي سليمان وجنوده. إذا صحت هذه الأخبار كلها فالحالة تزداد خطورة.

لم أرَ بعدُ الأغا سي أحمد ولد القاضي[6]. وانطلاقه هو والمخزن باتجاه البيض أمر "مستعجل جدا".

ونظرا لهذه التحركات التي أقلقت الفرنسيين بعث حاكم وهران برقية إلى الحاكم العام بمدينة الجزائر يطلب منه الموافقة على إرسال بوبراتر إلى جبال العمور ليساهم في استتباب الأمن من

خلال قهر "تمردات" القبائل. وقد جاء رد الحاكم العام بالموافقة، وهو ما حملته برقيته إلى حاكم وهران والمؤرخة بـ22 مارس 1864:"أوافق على بعث الكولونيل بوبراتر إلى جبل العمور ضمن المهمة التي وضحتها برقيتكم".

ويبدو أن مهمة بوبراتر كانت تبدو صعبة منذ البداية، ولعل هذا ما جعل الحاكم العام يردف برقيته السابقة إلى حاكم وهران ببرقية أخرى بعد يوم واحد يعلمه فيها أنه قرر بعث قوات من الصبايحية إلى طاقين تعمل بالتنسيق مع بوبراتر: "أبعثُ إلى طاقين فصيلة من الصبايحية مع حاكم بوغار. وستقتصر مهمة هذا الضابط على الملاحظة وستكون له علاقات مع الكولونيل بوبراتر".

غير أن الأخبار التي سيتوالى وصولها لن تكون سارة، فبعد أن كان قائد البيض يعوّل على مجموعة من القبائل منها القراريج والرزيقات لإخضاع المتمردين جاءت برقية مؤرخة بـ 27 مارس بعث بها حاكم معسكر إلى حاكم وهران يعلمه فيها بتمرد هؤلاء: "لقد كتب الكولونيل بوبراتر من عين الوسخ[7] يوم 25 مارس مساء بأنه علم بخبر تمرد الرزيقات وولاد عيسى والقراريج".

وهنا يأتي تدخل القوات الفرنسية عبر "القياد" الذين طاردوا المتمردين (أولاد يعقوب) حتى جنوب الحبشي ومنعوهم من التزود بالحبوب والماء واسترجعوا إبلا مسروقة، وهو ما أعلن عنه النقيب Burin الذي استلم رسالتين من سي الأعلى وواحدة من القياد وهي مليئة بعبارات الإخلاص ولكن أيضا بالتناقضات.

فرغم توالي هذه البرقيات "الرسمية" خلال فترة زمنية قصيرة فإنها لم تسلم من بعض الاختلافات، كما حدث بخصوص حضور قايد البيض Burin لمعركة عوينة بوبكر، ففي هذه الرسالة المؤرخة بـ 28 أفريل 1864 والمبعوثة من قرندة إلى الحاكم العام بالجزائر تحت رقم 47 نقرأ أن النقيب المذكور وصل متأخرا مع الأغا ولد القاضي، حيث كانت الأصوات قد تعالت ورغم هذا حاول- دون جدوى- مساعدة جيش الكولونيل بوبراتر وحين حيل بين قوات الضابطين قرر Burin العودة إلى البيض لتتبع المعطيات التي جاءتنا بها البرقية:

"على إثر تمرد سي سليمان الذي عرف توسعا هاما وردت أوامر إلى الجنرال بوبراتر ليتوجه من تيارت إلى الجهة الشرقية من جبال العمور على رأس 100 من المشاة وفصيلة من الصبايحية و"القوم" ليعمل على استتباب الأمن وذلك من خلال الهجوم على مؤخرة جيش سي سليمان الذي وردت أخبار عن توجهه إلى البيض. غير أن الجنرال لم يتقيد بهذه التعليمات ظنا منه أن مساعدة من النقيب بيران Burin كفيلة بأن تخضع قبائل جنوب البيض.

ورغم التعليمات التي وصلت إلى بوبراتر والتي مفادها السيطرة على جبال العمور بقدر ما يسمح بالزحف على البيض بسرعة لكن بتحركات ضيقة، فإنه لم يطبقها حيث توجه هذا الضابط السامي على رأس قواته الصغيرة إلى تملالك حيث دعا إلى لقائه القائد الأعلى للبيض وتم الاتفاق على التوجه إلى الغاسول على أن يبقى "قوم" الأحرار وجبال العمور خلفه على مسيرة يوم واحد.

ولو اتبع بوبراتر تعليماتكم لاستطاع- على ما أظن- أن يبقي سيطرته على الأحرار ويمنع ما حدث لمعسكره. ومن تملالك واصل الكولونيل بوبراتر طريقه لمدة 03 أيام تيقن بعدها بقرب تمرد الأحرار فقرر دخول البيض ليحافظ على قواته.

لقد وصل فعلا يوم 07 أفريل إلى عوينة بوبكر على الساعة الرابعة مساء حيث نصب مخيمه بينما ترك 1500 فارس من الأحرار وجبل العمور في بوعلام. وبعث إلى القايد الأعلى للبيض بألا يُخرج حاميته العسكرية وأن يأتيه شخصيا هو والآغا سي أحمد ولد القاضي حيث معسكره في عوينة بوبكر.

كان بوبراتر يظن- وهو في عوينة بوبكر- أن مقاتلي سي سليمان بعيدون جدا، ولذلك لم يتخذ أية إجراءات احتياطية لمجابهة الهجوم، بل كان يظن أنه سيصل إلى البيض باكرا يوم 08 أفريل غير أن توقعاته خانته في ذات اليوم على الساعة الرابعة والنصف.

في الصباح الباكر، حين وصل بوران Burin والآغا سي أحمد ولد القاضي إلى المعسكر كانت الأصوات الداعية إلى حمل السلاح وطلقات البنادق قد تعالت. ووقع الخلل حين تمت مباغتة مقدمة المعسكر الكبيرة وهي في حالة نوم.

استطاع الكولونيل المصاب أن يجمع بعضا من فرسانه والقيام بدفاع بطولي تهاوى أمام أعداد المقاتلين العرب الكثيرة التي لم تتوقف عن إطلاق النار والهجوم بقوة على هذه "الحفنة من الشجعان". وعلى الساعة الثامنة كان كل شيء قد انتهى.

حاول بعض الفرنسيين و44 من صبايحية تيارت- في هذه الفوضى- التجمع لكنهم لم يجدوا نقيبهم Thibaut والملازم Perrin اللذين قتلا منذ بداية الهجوم فتجمعوا حول النقيب Burin والأغا سي أحمد كمحاولة هدفها تخليص الكولونيل بوبراتر غير أن جهودهم باءت بالفشل وأجبروا على الرحيل إلى البيض.

القتلى: الكولونيل بوبراتر القائد الأعلى لتيارت/النقيب Isnard مسؤول المكتب العربي بتيارت/المترجم Thibaut/Cabissot قائد الصبايحية/الملازم Perin من الصبايحية/الملازم الأول Blanpied من الرماة/إضافة إلى جميع ضباط الصف والعرفاء والجنود الذي يشكلون مفرزة المشاة المائة الذين وضعتهم تحت تصرف الكولونيل بوبراتر وكذلك 15 فرنسيا المنتمين إلى فصيلة الصبايحية".

أما الرسالة المؤرخة في 13 أفريل 1864- تحت رقم 125- والتي بعث بها مسؤول المكتب العربي بمعسكر فإنها تورد أن النقيب Burin حين وصل مع الأغا ولد القاضي إلى معسكر بوبراتر أبدى لهما قلقه من عدم وصول أية معلومات عن "الحرار" و"العمور" منذ أكثر من 24 ساعة. وفي ذات الأثناء سمعوا ضجيجا تلته أصوات البنادق. إنها بداية المعركة. وقدمت الرسالة معطيات عددية هامة تخص خسائر الفرنسيين:

"حيل بين Burin وبين بوبراتر وصار عليه اللجوء إلى البيّض، وقد رافقه الأغا سي أحمد ولد القاضي والأغا سماعيل ولد المزاري. وعلى الساعة 11 من ذات اليوم بعثت دائرة البيض 40 فارسا إلى عين المكان. كان جند المقاومة قد انصرفوا. وعدّ هؤلاء الفرسان 186 جثة؛ منها 95 جثة للفرنسيين والمدفعية و91 "للقوم" المساندين لفرنسا والتابعين لبعض

القبائل المتحالفة معها. ولم يتم التعرف على أية جثة بسبب التشوهات الناتجة عن النار التي أشعلها "المتمردون" في (الحَلفاء)".

كما حملت هذه الرسالة شهادة بعض الناجين الذين أكدوا أن النقيب Thibault والملازم Perrin قتلا في بداية العملية. وأن بوبراتر كان قد أصيب أولا، وأنه فقدت أخباره وأخبار النقيب Isnard والملازم Blancpied.

أما سماعيل ولد المزاري- حسب ذات الرسالة- فإنه توجه إلى الصفيصيفة لقضاء الليل، وفي اليوم الموالي التقى بأولاد سيدي خالد فجردوه من كل شيء، بعد أن تفرق عنه جنده، وقُتل فارسٌ من القبائل المرافقة له، كما جُرح قايد قبيلة أخرى مرافقة.

أما مسؤولية ما حدث لبوبراتر فتحمّلها هذه الرسالة لقبائل "الحرار" وقبائل جبال العمور الذين ظلوا مترددين "ويظهر أن الحاج قدور بن الصحراوي هو المحرض على الثورة".

وإذا كان أغلب الفرنسيين يعزون انهزام بوبراتر إلى عامل المباغتة فإن بعضهم لا يرى ذلك، ولنذكر هنا - من باب المقارنة – ما كتبه Michel Antar عام 1907[8]:

"يوم 07 أفريل بعث بوبراتر يطلب لقاء حاكم البيض بعين بوبكر حيث سيعسكر هذه الليلة. وفي الرابعة والنصف من صباح اليوم الموالي دخل حاكم البيض والآغا أحمد ولد القاضي على بوبراتر في خيمته فوجداه ملقى على سريره وقد هيأ نفسه. وحين سألهما عن الجديد من الأخبار نقلا إليه أن سي سليمان غيّر خطته، فهو يستعد- عوضا عن مهاجمة البيض- للانقضاض على معسكر بوبراتر، وأنه ليس بعيدا عن عين بوبكر".

ومن خلال البرقية التي تحمل رقم 820 والمؤرخة بـ09 أفريل والتي بُعثت من معسكر إلى حاكم وهران يتبين أن فرار Burin من ساحة المعركة لم يكن بالشيء المقبول، إذ ما لبث القبطان Isnard أن كتب إليه:

"عليكم بالمجيء مع كل من معكم بما في ذلك "قوم" سي أحمد (بن القاضي). أحضروا لنا مجموعة من الحمالات Brancards فالكولونيل جريح. تعالوا بسرعة".

وإذا كانت برقيات أخرى تحدثت عن رجوع Burin إلى عوينة بوبكر على الساعة 11 من صباح ذات اليوم فإن هذه البرقية تحدثت عن رجوعه على الساعة 07 صباحا مع طبيبه. ولعل

القارئ يجد نفسه غير قادر على استيعاب هذه الاختلافات، لأن الفارق الزمني كبير (04 ساعات). إلا أن يكون Burin عاد من منتصف الطريق وهو يعتقد بوجود خيانة عظمى من الأحرار وجبل العمور. أما قدرته على توفير وسائل الإسعاف – حسب البرقية - فكانت محدودة مقارنة بعدد المصابين الهائل.

ومما يزيد القارئ حيرة اطلاعه على وثيقة صادرة عن النقيب Burin نفسه- وهو القائد الأعلى للدائرة- والموجهة إلى المكتب العربي بالبيض بتاريخ 10 أفريل 1864 حيث يبدؤها بقوله "بالأمس" وكأن الحادثة كانت يوم 09 أفريل، ثم يقول: "وقد أرسلنا أناسا إلى عوينة بوبكر" وهذا ما يجعل مسألة عودته إلى ساحة المعركة محل نظر، غير أنه في نهاية البرقية يتحدث عن قايد ستيتن ويقول إنه رافقه إلى معسكر بوبراتر. وليقف القارئ بنفسه على هذا الخلط نضع البرقية- مترجمة- بين يديه:

"بالأمس على الساعة 8 صباحا لم يعد رتل تيارت موجودا، مات جميع الجنود والضباط الفرنسيين، لحد الساعة لم ينجُ سوى الطبيب البيطري وثلاثة آخرين[9]، كما جُرح الخياط الفرنسي. أما الصبايحية الأهالي الذين كانوا مع العقيد بوبراتر فثلاثة وأربعون منهم هم الآن بالبيض، وقد أرسلنا أناسا إلى عوينة بوبكر فعادوا وأخبرونا أن جميع الجثث قطعت رؤوسها، ولم يعرفوا إذا كان العقيد بوبراتر والنقيب إسنار والملازم Blampied ضمن الأموات.

لقد قُتل الباشا الأسبق وأما الخوجة سي الفضيل فأصيب إصابة بليغة ... وكان بين المهاجمين سي الأعلى، سي الزبير وسي سليمان بن بوبكر وابن أخيهم. وقد التحق أغلب ستيتن بالمهاجمين في حدود السابعة صباحا

عينت عائلة أولاد سيدي الشيخ على رأسها سي محمد بن حمزة أخا سي سليمان، والذي كانت تحركه دوما مشاعر سيئة[10].

قبائل طرفي هي الآن في أرضها، أما أولاد زياد فسيلتحقون بسي محمد بن حمزة. واسمح لي سيدي الجنرال بالتنويه بدور قايد ستيتن الذي تصرف بشكل جيد فأنقذ البيطري Favellier بذكاء. وكان هذا القايد قد رافقني إلى معسكر بوبراتر ولذا وُجد بعين المكان".

أما مصير بوبراتر والنقيب Isnard فظل مجهولا حيث لم يُعثر عليهما ضمن القتلى، وهذا طبقا لما جاء في برقية مؤرخة في 11 أفريل 1864 حملت رقم 547، وكانت من العقيد المسؤول عن الشؤون العربية بمعسكر إلى حاكم وهران. كما تحدثت البرقية عن وفاة سي سليمان وإصابة الخوجة:

"حسب برقية من البيض وصلت الآن لم يبقَ من رتل بوبراتر إلا[11] ... و43 من الصبايحية الأهالي وهم جميعا بالبيض، العقيد بوبراتر والنقيب Isnard لم يُعثر عليهما ضمن القتلى. قُتل سي سليمان أما الخوجة فأصيب إصابة بليغة. كان سي الأعلى وسي الزبير ضمن المهاجمين. وقد خلّف سي محمد بن حمزة أخاه".

وأما مشهد الهجوم على المعسكر بما فيه حالة الذعر التي عاشها الفرنسيون وما تلاها من فرار جماعي فقد رسمه شاهد عيان- هو الضابط Toudy- في مشهد أدبي جميل ضمن رسالة مؤرخة بـ09 أفريل 1864 مبعوثة إلى مسؤول دائرة تيارت مقدِّما تفصيلا أدق لما حدث. لنقرأ:

"لقد تم الهجوم على جيش بوبراتر من قبل فرسان يقال إن قائدهم هو سي سليمان. وعلى الساعة الخامسة إلا 03 دقائق استيقظ جميع الصبايحية: "احملوا أسلحتكم وأسرجوا خيولكم". وكان يحرضهم النقيب تيبو Thibault الذي خرج من الخيمة وهو يلبس قميصا. وفي ذات اللحظة بدأ قتال عنيف على الجانب الثاني من المنحدر حيث كان المخيم قد نُصب.

استيقظ كل فارس وأسرع نحو حصانه- حاملا السرج والسلاح- ليسرجه ثم ينطلق. لكن كثيرا من الفرسان لم يستطيعوا أن يسرجوا خيولهم المذعورة بسبب العيارات النارية وصياح الأعداء، وهو ما جعلهم يخالفون أوامر قادتهم ويفرون راجلين.

في ذات الوقت صار المعسكر في يد "القوم"[12] الأعداء ، وكل من لم يستطع ركوب حصانه ترك ساعته وربما سلاحه وذخيرته وفر مسرعا[13] في الجهة الثانية من الوادي.

كان النقيب Thibault داخل الخيمة، وحين همّ بالخروج تلقى عدة طلقات فسقط. كما سقط الملازم Perrin من على ظهر حصانه في ذات الوقت تقريبا بعدما أصابته رصاصة.

لم أرَ أكثر من هذا، قُتل حصاني فغررت راجلا أحمل بندقيتي. وكانت سعادتي كبيرة حين التقيت صبايحية السَّرِيَّة الذين أخذوني معهم رديفا، حصان بلا سرج والثاني هو حصان السيد Thibault المسرج وقد أخذته وسُقْتُه إلى Geryville (البيض)

كانت قواتنا عند الخروج من تيارت تتكون من نقيب، ملازم فرنسي، ملازمين من الأهالي، 90 سيفا منهم 23 فرنسيون و77 من أهالي[14]. وبعد معركة 08 أفريل بقي ضمن التعداد ملازمان من الأهالي، 06 فرنسيين و47 من الأهالي، أي 53 سيفا والبقية كلها اختفت.

اجتمع الصبايحية الثلاثة والخمسون الذين كنت بينهم حول السيد محمد بن تمارت Tamart وحمو ولد مجاجي الضابطين الملازمين الوحيدين اللذين نجيا. أما الطبيب البيطري Favelier الذي عاد إلى Geryville بعد الفصيلة فإني لم أعدّه ضمن الضباط.

هذه هي سيدي القائد الأحداث التي شهدتُها والتي أتشرف بنقلها إليكم. تقبلوا فائق احترامي سيدي القائد.

خادمكم المطيع. الإمضاء .CH

Toudy

Marechal Logis Chef au 2ème Spahis.

ومن المشاهد الدالة أيضا على حالة الذعر والارتباك التي وقعت فيها الإدارة العسكرية الفرنسية ما نقلته البرقية التي بعثت بها قيادة الأركان العامة تحت رقم 19 بتاريخ 14 أفريل 1864 والتي تستعلم من خلالها عن الجنود المائة الذين كانوا مع بوبراتر إلى أي سلك عسكري ينتمون؟

Faites moi connaitre à quel corps appartenaient les 100 hommes d'infanterie qui se trouvaient avec le Colonel Beaupretre. Aucune de vos dépêches antérieures ne l'indique".

نتائج العملية:

1- اتساع رقعة المقاومة وتأخير امتداد المشروع الاستعماري: واضح أن هذه العملية الكبيرة التي دشنها "الحرار" و"العمور" بتمردهم على السلطة الفرنسية وأمّها أولاد سيدي الشيخ بجموعهم

على معسكر بوبراتر فتحت شهية القبائل للقيام بتحركات أشدّ فاعلية، حيث أصبحت أكثر جرأة على المقاومة وهذا ما زاد من تخوف الفرنسيين. فقد كانت جهة فرندة وسيدي عبد الرحمن مثلا حاضرة في البرقية التالية المؤرخة بـ 11 أفريل والمبعوثة من معسكر - تحت رقم 834- إلى الجنرال حاكم مقاطعة وهران ، فقد ورد فيها أن تمرد الحرار لم يعد فيه أدنى شك، حيث تم الهجوم في سيدي عبد الرحمن على محطة الخيول، أما قافلة صدامة التي رجعت من البيض لتموين سي أحمد (بن القاضي) فهاجمها القراريح وأخذوا القاضي الحاج البشير الذي كان ضمنها. وبناء على هذه المعطيات قامت البرقية اقتراحا بعودة سي أحمد (بن القاضي) إلى فرندة حيث صار وجوده ضروريا.

وقد أشار النقيب Burin– في المقابل - في رسالته المؤرخة بـ10 أفريل 1864 إلى أن أولاد زيان سيلتحقون بسي محمد ابن حمزة، ولعل هذا الخوف من هذه القبيلة كان له ما يبرره، وقد صدقت نبوءة Burin على أية حال، حيث جاءت يوم 10 أفريل برقية من معسكر بعث بها قائد الدائرة إلى مسؤوله يعلمه فيها أن المسؤول العسكري عن تيارت قدم إليه تقريرا يوم 09 أفريل يخبره فيه أن المكلف بالبريد الذي كان يجب وصوله إلى بوبراتر لم يمر أصلا لأن خليفة قايد أولاد زيان اعترض على مروره وأخذ حصانه.

كما نجد تأكيدا لهذه المعطيات ضمن مؤلَّف معاصر[15] مطبوع عام 1864، عرّج صاحبه - بعد الحديث عن الواقعة - على شخصية سي محمد بن حمزة الذي خلّف أخاه سي سليمان ودعا القبائل إلى الثورة، ثم ذكر - كتتبجة لذلك- استجابة قبائل كثيرة في الجنوب لندائه، وتمرّدَ قادةٍ كثيرين لطالما رضُوا بسيادة العلم الفرنسي.

«Si Sliman a été tué dès le commencement des combats, mais son jeune frère, lui succédant, a, comme lui, appelé les populations à la révolte. Plusieurs tribus du Sud ont répondu à son appel, et des Chefs, qui depuis longtemps marchaient sous le drapeau de la France, se sont mis à leur tête ».

ولا يسعنا هنا إلا التساؤل: هل اقتضى تزامُنُ هذه التمردات معنى التنسيق بالضرورة؟ أم هي ردود أفعال كان بعضها منفصلا عن بعض؟

2- تنامي روح الانتقام لدى السلطة الاستعمارية: في أعقاب قضية بوبراتر سارت قبائل عديدة خلف أولاد سيدي الشيخ وقائلهم سي محمد بن حمزة كالمخادمة والشعانبة وكثير من قبائل الأحرار، وكان يدعمه عمه سي الأعلى. وقد هاجم فرندة على رأس 2000 من أتباعه. لكن أحمد ولد القاضي آغا فرندة جمع كثيرا من القبائل بما فيها ودافع عن الآغاليك.

وكان هذا الحاجز قد دعا سي محمد بن حمزة إلى للمرور نحو واد سوسلم جهة جبل الناظور بتيارت فساندته قبائل ووقفت ضده أخرى. ومثّل هذا التجاذب فرصة لقبائل الأحرار المتمركزة جنوب تيارت لتثور خصوصا وأن فرنسا ركزت عليها جهودها لتعزلها عن المقاومة من خلال إفقارها، وهو ما يتضح جليا من خلال التقرير الذي ذكرته جريدة Courrier de la Drôme et de l'Ardèche في عددها الصادر يوم 12 ماي 1864 متحدثة عن الاستعدادات الفرنسية لغزو جهة تيارت:

"من الجنرال Deligny إلى السيد الحاكم العام بالجزائر، في 05 ماي عام 1864 على الساعة الواحدة والنصف زوالا: لقد كان انضمامنا بالأمس أنا والجنرال مارتينو بالقطيفة حيث نحن اليوم، وغدا سنفترق؛ هو يتوجه نحو فرندة ومن هناك إلى تيارت. وأنا سأتقدم نحو الأمام وأترك له بعض التوصيات المتعلقة بدوره: أن يمنع بالقوة حركة قبائل اليعقوبية وزدامة وتل تيارت، وأن يأكل شعير لحرار (manger les orges des Harars) ويفرغ مطاميرهم ويراقب التموين بفرندة وتيارت، وأن يستعد ليبعث إليّ قبل 25 من هذا الشهر 50000 وجبة إلى خنق الصوف حيث سأكون يوم 07، وأن يتصل أخيرا بالجنرال Liebert".

ثم إن عملية القضاء على معسكر بوبراتر كرست روح الانتقام عند العسكريين الفرنسيين، وهو ما يتضح من خلال العملية الانتقامية التي قادها الجنرال Martineau يوم 26 أفريل 1864م، بمكان يسمى عين القطا ضد جيش على رأسه سي الأعلى حسب رسالة بعث بها هذا الجنرال إلى قائد الأركان العامة بوهران. ورغم خسائره التي قدرت بـ 68 قتيلا ضمنهم 03 ضباط فإنه تلقى بتاريخ 30 أفريل تهنئة على هذا الفعل من الحاكم العام شخصيا عن طريق حاكم عمالة وهران:

"Adressez en mon nom des félicitations au General Martineau et à ses troupes au sujet de l'affaire du 26, supposant que vous vous porterez à sa rencontre ces jours-ci"

وبعد 04 أشهر أقدمت القوات الفرنسية على ارتكاب جريمة بشعة أخرى ضد أولاد سيدي منصور[16] جهة تيارت، فقد شن الجنرال Martineau والكولونيل Péchot يوم 05 سبتمبر حركة ثنائية تعاون معها الجنرال Liébert واتجه الثلاثة نحو "معسكرات المتمردين" الذين لجأ بعضهم إلى جبل الناظور بمجرد علمهم بهذا التحرك الفرنسي:

"ومهما يكن فإن أولاد سيدي منصور...- الذين استقلموا الأعداء من التل وفصيلةً من "لحرار" وأغلبيةً متمردي دائرة عمي موسى- تم القضاء عليهم نهائيا يوم 06 سبتمبر"[17]

"حتى صارت حيواناتهم وخيامهم و400 من نسائهم بين يدي الجيش، وتم القضاء على 500 مسلح كانوا قد لجأوا إلى الجهات الجبلية الوعرة، وذلك بعد أن حاصرتهم قواتنا"[18].

غير أن هذه التحركات الفرنسية الخطيرة والمحمّلة بكل معاني الحقد والرغبة في الانتقام لم توقف المقاومة رغم أن بعض الجزائريين تركوا أراضيهم خوفا من القوات الفرنسية، وآخرين طلبوا الأمان، ورغم أن مجموعات أخرى انضمت إلى القوات الاستعمارية بفعل الضغوط المستمرة. لم تتوقف المقاومة بل كانت هذه السنة التي قتل فيها بوبراتر بداية لثورة أولاد سيدي الشيخ التي امتدت حتى 1884، واتصلت بها ثورة الشيخ بوعمامة بداية من 1881.

خاتمة:

- هكذا إذاً تحوّل موت بوبراتر والقضاء على معسكره على يد سي سليمان وجيشه إلى قضية كبرى حيث تم الطلاق نهائيا بين الإدارة الاستعمارية وأولاد سيدي الشيخ حلفائها السابقين، فعزمت على الانتقام من الجزائريين، وهو ما أفرزته الأيام اللاحقة ضمن ما سمي بمعركة عين القطا يوم 26 أفريل 1864.

- ساهمت قبائل "لحرار" وجبل العمور في هذا الحدث الكبير من خلال انقلابها الجذري حيث كان الحاج قدور بن الصحراوي هو المحرض على الثورة، ثم ظهرت جيوب أخرى هنا وهناك في سيدي عبد الرحمن وفرندة وجهة أولاد زيان وغيرها. وهذا تلبية لدعوة سي محمد بن حمزة، وهو ما تبينه الرسالة التي بعث بها (في اليوم الموالي لمعركة عوينة بوبكر) إلى قدور ابن الصحراوي وإلى مجموع

"أحرار" وأولاد زيان وإلى خدام أولاد سيدي الشيخ والشاوية والكعابرة وأولاد بن منصور وأولاد بوعفيف يدعوهم من خلالها إلى الجهاد قائلا: "لقد حانت الساعة التي انتظرتُها لإعلان الجهاد حسب ما تقتضيه واجباتي"[19].

- بما أن قضية مقتل بوبراتر قد شجعت القبائل على الثورة فإنها أخرت المشروع الفرنسي القاضي بالتوسع على حساب الجنوب الغربي خصوصا وأن الثورة في المنطقة لم تتوقف كما أشرنا سابقا. فلم تعد القبائل تخضع بسهولة ولم يعد التوغل الفرنسي يحدث بيسر، وهذا ما أبانت عنه الأيام اللاحقة.

الملاحق:

الملحق 1: نصب تذكاري أنجزته الإدارة الفرنسية تخليدا لذكرى بوبراتر

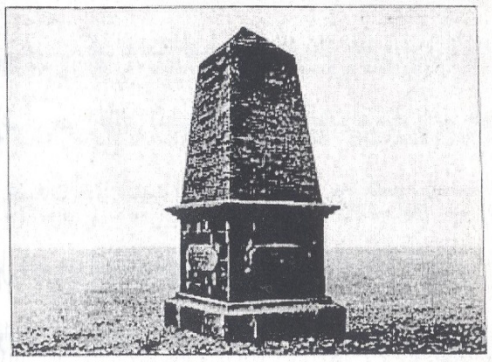

LE MONUMENT BEAUPRÊTRE A AÏN BOU BEKER.

Michel Antar, Chevauchées d'un futur St-Cyrien à travers les Ksour et oasis oranais, p 45

الملحق 2: نماذج من الوثائق الأرشيفية المعتمدة في البحث

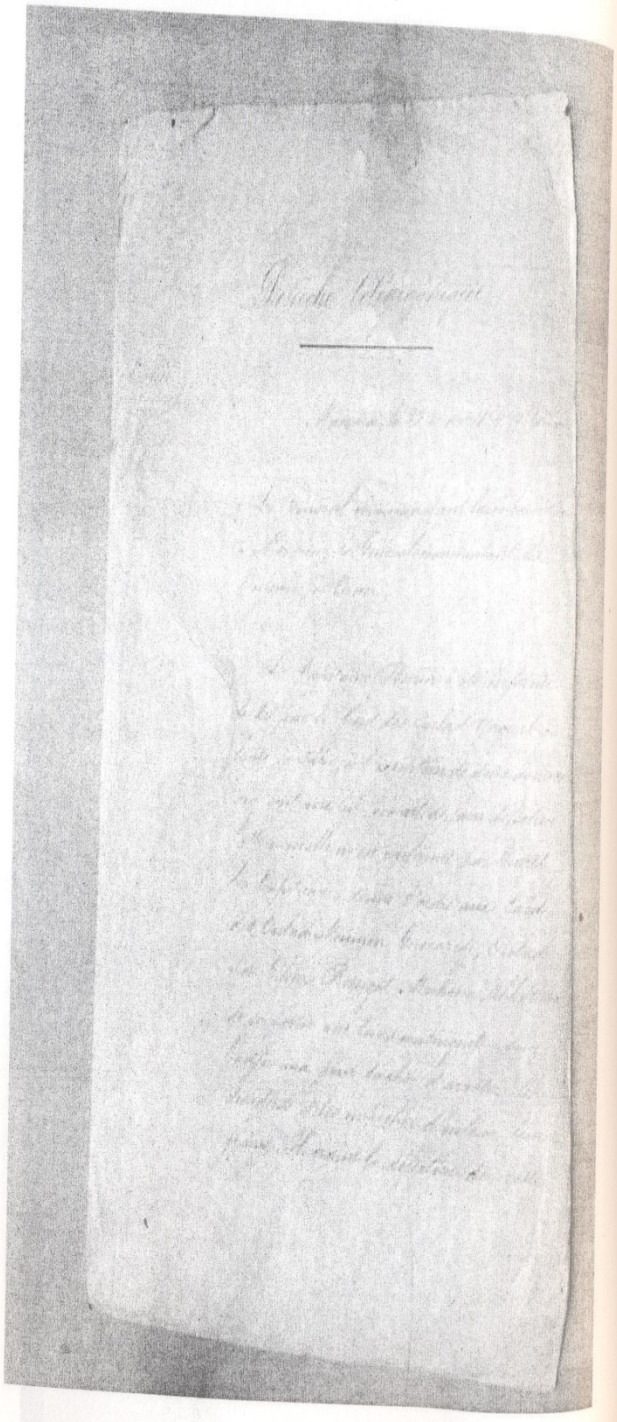

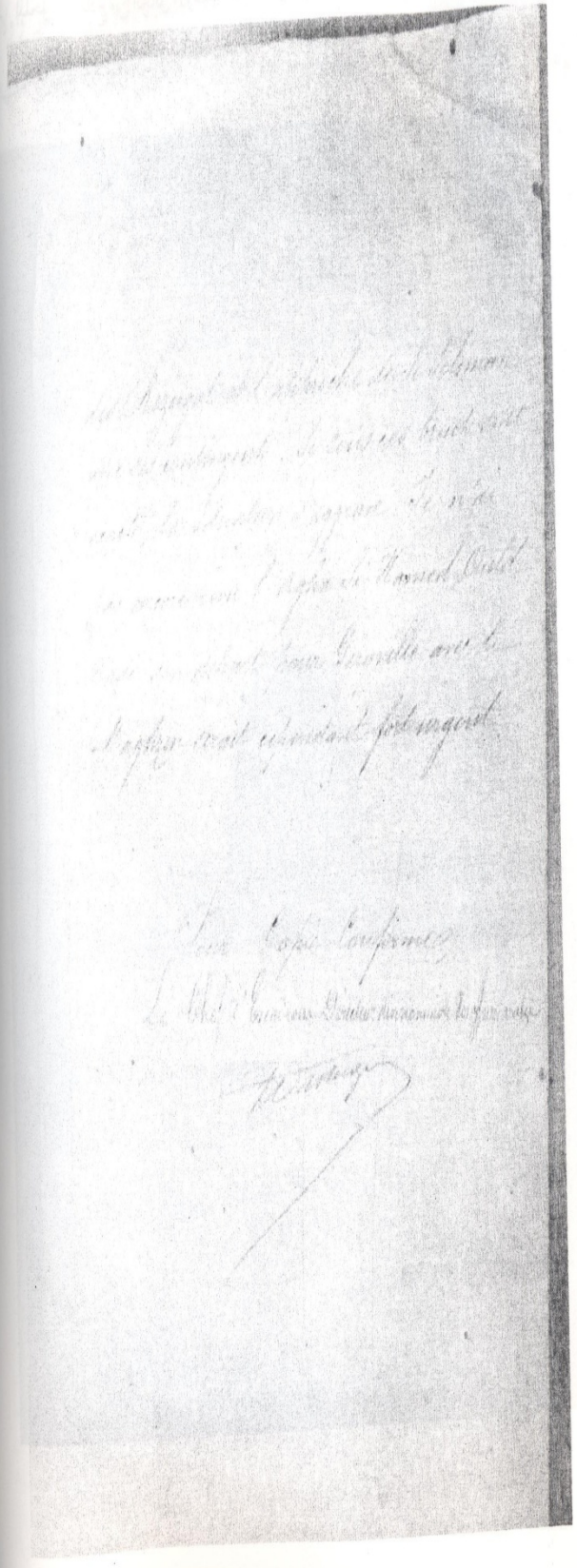

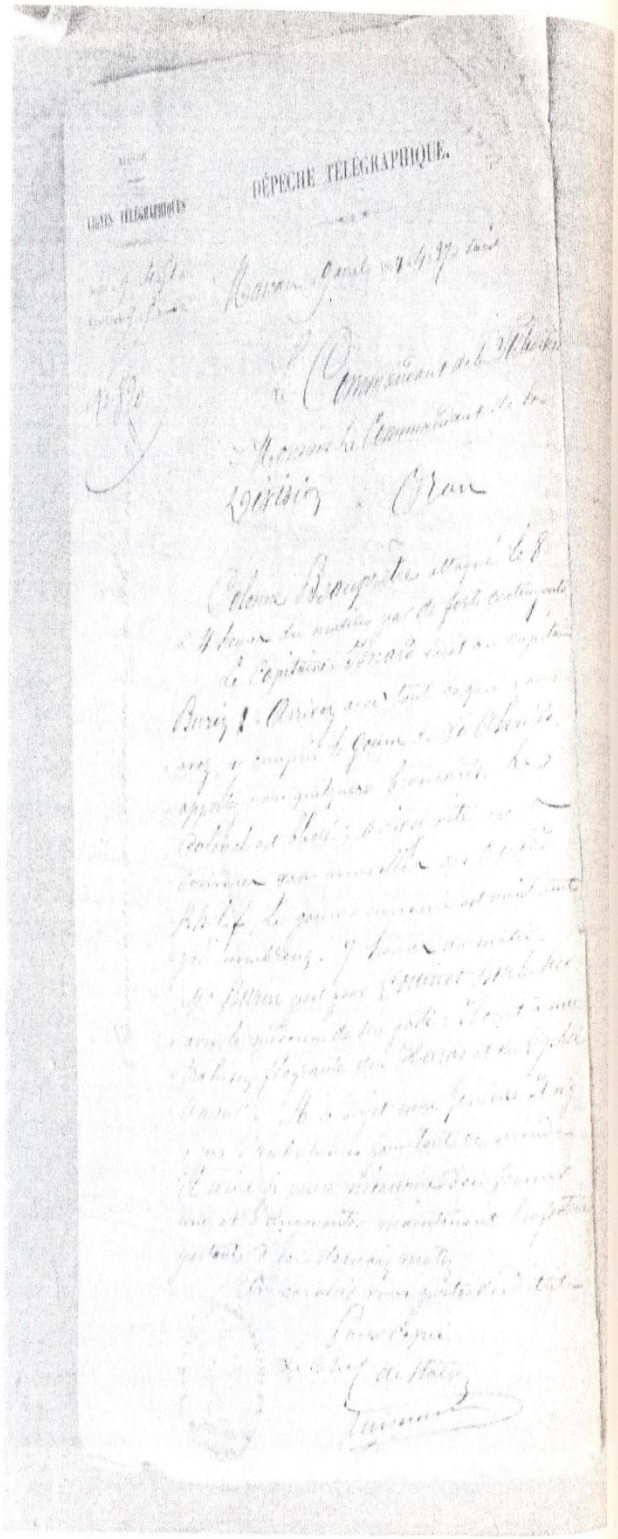
DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE.

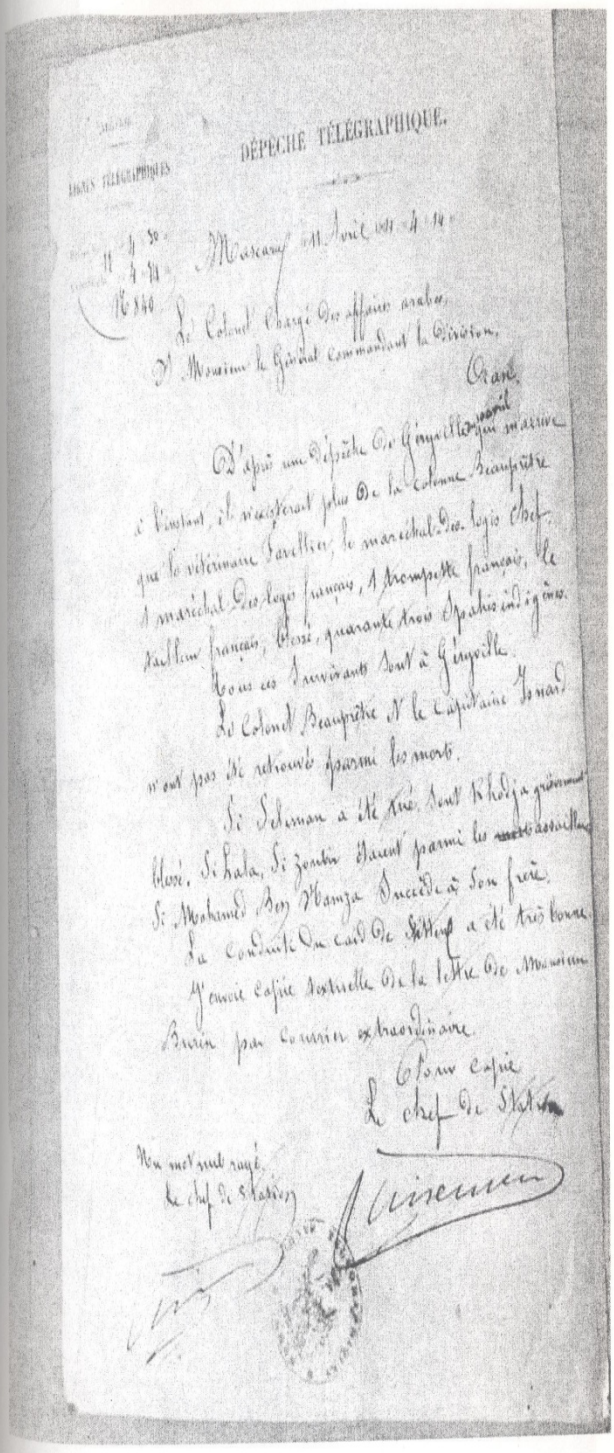

DÉPÊCHE TÉLÉGRAPHIQUE.

Mascara 11 Août 1871

Le Colonel Chargé des affaires arabes,
A Monsieur le Général commandant la Division.

Oran.

D'après une dépêche du Général Commandant supérieur à Tiaret, il manquerait plus de la colonne Beaupretre que le vétérinaire Pavillon, le maréchal des logis Chef, le maréchal des logis français, 1 trompette français, le Zouave français, Besse, quarante trois Spahis indigènes.

Tous les survivants sont à Géryville.

Le Colonel Beaupretre et le Capitaine Jouard n'ont pas été retrouvés parmi les morts.

Si Soliman a été tué, tout Khodja grièvement blessé, Si Kada, Si Zouaïn étant parmi les morts assaillants.

Si Mohamed Ben Hamza succède à son frère.

La Conduite du Caid de Stitten a été très bonne.

J'envoie copie textuelle de la lettre de Monsieur Brivin par courrier extraordinaire.

Pour copie conforme
Le chef de Bataillon

Vu et signé rayé
Le chef de Bataillon

الهوامش:

1- كل الوثائق الأرشيفية التي تم الاعتماد عليها في إنجاز هذه المقال عثرنا عليها في أرشيفات وزارة الحربية ، Château de Vincennes بباريس وهي من علبة واحدة تحمل الرقم التالي: GR 1 H 230 BIS, Château de Vincennes, Paris. وقد تفاديت تكرار ذكرها في كل مرة تخفيفا على القارئ. أما الجرائد والمؤلفات فتم الإشارة إلى كل منها في موضعه.

2 - Perret, E, Les Français en Afrique : Récits algériens, Paris, 1902, p 455

3 - Beaussier, Notice sommaire sur le Colonel Beauprêtre, In R.A, N° 14, 1870, p 441

4 - يحيى بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009، ص ص 174-178. ---- 5 - هو قائد البيض، وسيتكرر ذكره معنا خلال الصفحات اللاحقة. --- 6 - ظل أحمد ولد القاضي آغا فريدة (وليس باشا كما لاحظ) وفيا لفرنسا حتى وفاته. Michel Antar, Chevauchée d'un futur St-Cyrien à travers les Ksours et Oasis Oranais, Paris, 1907, p 50

7- هي المعروفة حاليا بعين الذهب والواقعة إداريا ولاية تيارت

8 - Michel Antar, Op.cit, p 50

9 - الوثيقة لم تذكر الأسماء وإنما الرتب وهي كالآتي:

1 Marechal des logis chef, 1 Marechal des logis Français, 1 Trompette Français

10 - يقصد بحملة الفرنسيين. --- 11 - جاء ذكر 05 ناجين من ضمنهم خياط فرنسي مصاب

12 - Goum --- 13 - se sauva à toutes jambes

14 - هكذا ورد في الرسالة غير أن 23 + 77 = 100

15 - Paul Blanc L'Insurrection en Algérie, Imprimerie de l'AKHBAR, Alger, 1864, p 53

16 - للاستزادة يراجع مقالنا حول ثورة أولاد سيدي منصور التي أمضيناها في إنجازه حوالي 03 سنوات جمعا خلالها وثائق جديدة لم يسبق نشرها: كمال بن صحراوي، أسلوب السياسة الاستعمارية النموذجي في احتلال الغرب الجزائري: مجزرة أولاد سيدي منصور بتيارت 1864 أنموذجا، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة بسكرة، ع15، جوان 2015، صص 332- 337

17 - Trumelet, Histoire de l'insurrection dans le sud de la Province d'Alger en 1864, Alger, Typographie Adolph Jourdan, 1879, pp 55-56.--- 18 - Journal de la Savoie , 14 Septembre 1864

19 - لرسالة موجودة ضمن ذات العلبة المذكورة سابقا، وأصلها العربي غير موجود وإنما مترجمة إلى الفرنسية وتحمل تاريخ 26 أفريل 1864.

Abstract: During the French colonial expansionist operations towards the south-west of Algeria, the French forces faced a fierce armed fighting which delayed its invasion plan for a long period of time. Of which was Ouled-Sid Cheikh resistance that took place in 1864 where the colonel Beaupretre lost his life at the hand of Si Slimane ben Hamza in Aouinet Boubekeur.

Subsequently, this (historic) incident had a significant impact either at the level of tribes which movements were integrated into the resistance or at the level of the French administration which intensified its reprisal actions (a revenge killing). To determine this considerable historic evidence (mark, vestige), we searched the French archives and found in (Château de Vincennes - Paris) a number of archival documents which supported the study.